مؤتمر تعظيم حرمات الإسلام

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الأمانة العامة للأوقاف

مجلة البيان

رد التطاول

على الصحابة الكرام رضي الله عنهم

د. عبد الستار فتح الله سعيد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعتي الأزهر وأم القرى (سابقاً)

الأعمال الخيرية

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، واتبع هداه إلى يوم الدين (أما بعد):

فقد شرفنا الله - تعالى - بدينه الإسلام، وجعله خاتمة رسالاته للناس، وحمله رسول الله ﷺ هو وأصحابه الغر الميامين، عبر تضحيات جسام، وجهاد موصول مبرور.

وقد قام في وجوههم طواغيت الجاهلية طويلاً، ورموهم بكل نقيصة، ولكن الله - تعالى - أتم نوره، وأظهر دينه، واستخلف عباده المؤمنين في الأرض، فكانوا رحمة للعالمين، وأخرجوا الناس من عبادة العبيد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، وصدق الله: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ} [آل عمران: ١١٠].

ثم أدركت المسلمين غمرة من دنياهم، فعاد الضالون للتطاول على الإسلام، وإلى الطعن في الدين وأهله، وفي نبيه العظيم ﷺ، والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، ومن تبعهم بإحسان، رضي الله عنهم أجمعين.

وهذا بحث موجز نتناول فيه هذه الظاهرة، والذين تولوا كبرها من خارج المسلمين عامة، ومن داخلهم خاصة، وقد ركزت على ظاهرة: (التطاول من الداخل)؛ لأنها أخطر أثراً، وأفحش ضرراً، والقصد الأول هو إبراز الأسباب، وبيان آثارها المدمرة على الدين والدنيا،

والفرد والمجتمع، توصلاً إلى ما نرجوه من إصلاح الأمور، وتبصير أهل الغرور، وعودة الشاردين إلى صراط الله المستقيم.

وقد قسمت البحث إلى مقدمة، وتمهيد، وثلاثة فصول، وخاتمة، توخيت فيها الإيجاز قدر المستطاع، وأردت منها التنبيه إلى الحق، لا التنديد والسب، رجاء أن يفيء العقلاء إلى دين الله، وما نزل من الحق.

{إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ} [هود: ٨٨].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه الفقير إلى عفو الله

عبد الستار فتح الله سعيد

تمهيد

خصائص الرسل عليهم السلام

اصطفى الله – تعالى – من الناس رسله الأكرمين، وزودهم بكل الخصائص والصفات التي تعينهم على الدعوة والبلاغ، ليقيموا في الأرض دينه الحق، ولتقوم بهم حجة الله على الخلق، وليقوم الناس بالقسط، كما قال – تعالى –:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ} [سورة الحديد: ٢٥].

وهذه الخصائص نوعان:

الأول: (الخصائص المشتركة) بين الرسل جميعاً عليهم السلام، مثل: الإيمان بالله واليوم الآخر، والصدق والأمانة، والتبليغ والفطانة والإبانة، وشرف الأنساب، وسلامة الحواس، ونحو ذلك مما يحتاجونه لرسالتهم: دعوة، وبلاغاً، وتطبيقاً وجهاداً.

الثاني: (الخصائص الذاتية)، التي ميّز الله – تعالى – بها كل رسول على حدة لتناسب زمنه، وقومه، والمرحلة التي بعث فيها مثل:

(أ) تناسب اللغات، قال – تعالى –: {وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} [سورة إبراهيم: ٤].

(ب) تفاوت الأعمار ومدّة البلاغ: فنوح – عليه السلام – كان أول رسول يبعث للناس خارج ذريته، لذلك زوده الله – تعالى – بطول العمر، وامتداد

الدعوة، وسعة الإمهال الإلهي للمكذبين من قومه عبر أجيال كثيرة، قال – تعالى –: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ} [سورة العنكبوت: ١٤].

(ج) تعادل الأوصاف: إذ تختلف الأمم شدة وليناً، وبداوة وحضارة، وقبائل ودولاً... إلخ. فكان كل رسول يبعث وفيه من الأوصاف الخاصة ما يعادل أحوال قومه، كموسى – عليه السلام – الذي زوده الله بصفات القوة، والحزم، والشدة في الحق، ليناسب دولة الفراعنة، ذات البأس الشديد، والسلطان الطاغي، والقوة العارمة الباطشة، قال – تعالى –: {وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ} [سورة يونس: ٨٣].

خصوصيات الرسول الخاتم ﷺ:

ولما بعث الله – تعالى – رسوله محمداً ﷺ، اختصه بعموم الرسالة، وختم النبوة، لذلك زوده بكل الخصائص والصفات اللازمة لذلك، وجمع له ما تفرق في إخوانه المرسلين – عليهم السلام – ليبْلُغ برسالته ما بلغ الليل والنهار، كما قال – تعالى –: {هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ} [سورة التوبة: ٣٣].

وهذا إجمال يحتاج إلى بيان فيما يلي:

الفصل الأول: الرسالة الخاتمة وحملتها

اقتضت حكمة الله - تعالى - أن تكون رسالة محمد ﷺ هي خاتمة الرسالات الإلهية لعباده، وحجة الله على الناس ما دام الرسول ﷺ فيهم، فكيف تقوم عليهم الحجة بهذه الرسالة بعد وفاته ﷺ؟

قال - تعالى -: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (سورة الأحزاب: ٤٠) وختام الآية الكريمة هو مفتاح الجواب على هذا السؤال.

لأن الله - تعالى - الذي أحاط بكل شيء علماً زود هذه الرسالة بكل عوامل الحفظ، والبقاء، والنماء، والامتداد، والخلود، بما أودع فيها من جوانب الامتياز والإعجاز، الذي يضمن لها التفوق والتفرد على كل المذاهب، والأديان، والأفكار، التي ستقابل هذه الرسالة المباركة في رحلتها الممتدة مع الحياة إلى آخر الدنيا، طولاً مع آماد الزمن، وعرضاً مع سائر الأمم، وعمقاً مع شتى النظم، والثقافات والحضارات، وصدق الله في وعده الكريم: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ (سورة النور: ٥٥).

أركان الرسالة الخاتمة

ولذلك هيّأ الله – تعالى – كل الأسباب لتحقيق هذا الوعد الكريم، خاصة بالأركان الأربعة التالية:

الأول: الرسول الخاتم ﷺ:

بما فطره الله عليه من صدق وأمانة، وأخلاق عظيمة، وعبودية تامة لله رب العالمين، وجهاد صادق في سبيله، وإخلاص في الدعوة والبلاغ، لذلك كان آية عظمى في الأرض في حياته، ثم بعد مماته متمثلاً في سنته الشريفة.

الثاني: القرآن الكريم:

وهو كتاب الله المعجز بلفظه ونظمه، والمنزل على رسول الله ﷺ ليكون هداه وسبيله، ومعجزته ودليله، والمنقول إلينا بالتواتر عبر أصحابه – رضي الله عنهم – والتابعين لهم بإحسان.

الثالث: الدين الكامل الشامل، الذي شرعه الله لعباده على علم وحكمة، وقال فيه: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ (سورة المائدة: ٣).

الرابع: الأمة المستخلفة: وهي الجماعة البشرية المخاطبة بهذا الدين، والمكلفة به تطبيقاً وبلاغاً، ودعوة للناس في كل العصور إلى يوم الدين. وهي بدورها تتألف من طبقات تتوالى عبر الزمان:

فالطبقة الأولى: هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وغيرهم ممن صحب النبي ﷺ حتى اكتمل القرن الأول وهو خير القرون.

والطبقة الثانية: هم التابعون لهم بإحسان ممن جاءوا بعدهم، حتى اكتمل القرن الثاني، وهو في الفضل يلي القرن الأول.

والطبقة الثالثة: الذين جاءوا من بعدهم.

وفيهم يقول ﷺ: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم...» رواه البخاري ومسلم من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما.

ويقول عز وجل: {وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ} [سورة التوبة: ١٠٠].

وهؤلاء هم الذين مكنوا للإسلام في أرض الله، وحملوه إلى الناس في كل مكان استطاعوا الوصول إليه، حتى ذاع وشاع، واستقر استقرار الأبد بإذن الله.

الطبقة الرابعة: أمة الإجابة جيلاً بعد جيل، ويتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح، وهم مثل صدر الأمة مكلفون بالتطبيق، والبلاغ.

ضرورة الأمة المستخلفة في الأرض:

وهكذا يتبين أن الأمة الإسلامية بداية وامتداداً هي ضرورة أساسية لدين الله عز وجل، وليست مجرد أمة عابرة في التاريخ، لتؤدي مهمة محدودة ثم تسقط كأوراق الخريف الذابلة، كما سقطت قبلها أمم وشعوب، وحضارات ودول!!

ولكن الصحيح أنها امتداد موصول حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ لأن الله - تعالى - أخرجها إخراجاً، واستخلفها لأمر خطير، هو أن تكون امتداداً أميناً لصوت النبوة الخاتمة بعد وفاة الرسول الخاتم ﷺ، كما كانت في حياته، ولتحمل للناس رسالات الله الشاملة الكاملة، ولتقوم الحجة بها على الناس بعد ختم النبوات، ولذلك كرمها الله - تعالى - وشرفها، وكلفها، وناط بأعناقها مهمة الدعوة والبلاغ، والجهاد الموصول إلى آخر الدهر، حتى يقاتل آخرها الدجال وأتباعه، كما قاتل أولها المشركين وأهل الأوثان.

الفصل الثاني: الصحابة خير الأمة المستخلفة

الصحابي بالمعنى العام: «كل مسلم رأى النبي ﷺ ولو لحظة، ومات على الإسلام». وهذا مذهب المحدثين عامة، وكثير من العلماء(١).

والصحابي بالمعنى الخاص: من طالت صحبته للنبي ﷺ، واختص به اختصاص الصاحب بالمصحوب.

ومن العلماء من يشترط لذلك شروطاً مثل: طول المجالسة للنبي ﷺ، أو يكون قد روى عنه وحفظت روايته، أو غزا معه، أو استشهد بين يديه ﷺ(٢).

بل كان سعيد بن المسيب – إمام التابعين- لا يعد الصحابي إلا من أقام مع النبي ﷺ سنة أو سنتين، وغزا معه غزوة أو غزوتين(٣).

ويجمع بين القولين: بأن القول الأول هو لبيان أصل الصحبة. والقول الثاني هو لبيان درجة الصحبة.

ولا شك أن الصحابة – رضوان الله عليهم – لهم شرف الصحبة وفضلها بالرؤية والإسلام، ولكنهم يتفاوتون في درجاتها تفاوتاً كبيراً جداً، بين السابقين الأولين إلى الإسلام كأبي بكر، وخديجة، وعلي، وزيد بن حارثة، ثم من هاجر الهجرتين، ثم من شهد بدراً من المهاجرين

---

(1) شرح صحيح مسلم للإمام النووي، جـ١، ص٤١.

(2) الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ بن حجر، ص٢٩٦.

(3) مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث مع شرحها، ص٢٩٧.

والأنصار، ثم من أنفق قبل فتح مكة وجاهد، على تفصيل واسع النطاق في بيان طبقات الصحابة - رضي الله عنهم - قال - تعالى -: ﴿ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ (سورة الحديد: ١٠).

للصحابة الصدارة وفضل السبق:

ومن ذلك يتبين فضل الصحابة - رضي الله عنهم - على غيرهم من طبقات الأمة التي جاءت بعدهم، وأنهم رأس الأمة جميعاً، وعمادها، وأساسها، فقد سبقوا إلى الإسلام ابتداء، وأخذوا من النبي ﷺ، وجاهدوا في الله جهاداً طويلاً، وحملوا علوم الإسلام والقرآن، ونقلوها لمن بعدهم في صدق وأمانة.

يقول الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله -: «إن أعداداً كبيرة من أصحاب محمد ﷺ ذهبوا شهداء في معارك الجهاد ضد الوثنيين والكتابيين».

والدارس المحايد يرى آثار النبوة في شمائل أولئك الرجال الشجعان... لقد أُشربوا منه حب الله – تعالى - وطلب رضاه، والتمهيد للقائه، والشوق إلى جنته، فأقدرتهم هذه العواطف الجياشة على تهديم أسوار الباطل وكانت عالية، وتلاشت إمبراطوريات استعصت على الفناء قروناً متطاولة.

وتميز أصحاب محمد ﷺ (بأمرين) لم يُعرفا في تاريخ النبوات الأولى: لقد نقلوا الوحي السماوي كله فما سقط منه حرف، ونقلوا السنة

النبوية كذلك، وربوا من الأتباع من عمل عملهم، فإذا الإسلام يبقى في أصوله النظرية مصوناً من كل شائبة.

وظل هذا التواتر للقرآن كلمة كلمة، وللسنة في الجملة، فتوفرت للرسالة الخاتمة عناصر الخلود، وظلت، وسوف تظل، كلمة الله الأخيرة للخلائق أجمعين حتى انتهاء الدنيا.

أما الأمر الآخر فإن الصحابة - رضي الله عنهم - هم الذين جعلوا عالمية الرسالة حقيقة واقعة، فإن النبي - عليه الصلاة والسلام - لحق بالرفيق الأعلى ودينه لم يتجاوز حدود جزيرة العرب، وقد علم الأصحاب الكرام أنه مبعوث للعالم كله، فشرعوا ينساحون في الأرض مبشرين ومنذرين.

ولم يكن الطريق سهلاً، فإن رعاع العرب داخل الجزيرة العربية حاولوا إعادة الليل المدبر، وإحياء الجاهلية المسحوقة، كما أن مجوس فارس، وصليبي الرومان اعترضوا بالعنف مسار الدعوة.

غير أن الجيل الذي رباه محمد ﷺ كان صلب المعدن، شديد البأس، جمع بين الصرامة والكرامة.. ولم يضرع أمام قوى الباطل، إنه نازلها كلها حتى كسر شوكتها، وأسقط دولتها. إن تربية محمد ﷺ لهذا الجيل معجزته الكبرى بعد القرآن الكريم..»[١].

(1) علل وأدوية للشيخ محمد الغزالي، ص١٢٧ - ١٢٨، دار الدعوة بالإسكندرية بتاريخ ذي الحجة ١٤١١ هـ، ١٩٩١م.

شهادة الله - تعالى - للصحابة:

لقد استفاضت شهادة الله - تعالى - في كتابه الكريم، المحفوظ المتواتر، لهؤلاء الصحابة الكرام بالخير، والتزكية، والمدح، والحكم لهم بما لا يعلمه إلا هو من الإخلاص، والعدالة، ولذلك أمر أمراً صريحاً بمحبتهم وإكرامهم، ونهى نهياً جازماً عن إهانتهم وسبهم، أو الطعن فيهم، وانتقاصهم. ومن ذلك على سبيل الإيجاز:

أولاً: امتنان الله - تعالى - على الأمة جميعاً بصنعه لها، وإخراجه إياها، واختياره لأفرادها على أرقى ضروب الكمال البشري، والخير الإنساني، قال تعالى:

• {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: ١٤٣]. ومعنى (وسطاً) أي: خياراً عدولاً.

• وقال - تعالى -: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ} [آل عمران: ١١٠]. وهذا خبر صريح بأن هذه الأمة خير الأمم وكفى بالله شهيداً.

• وقال - تعالى -: {وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: ٧٨]. والاجتباء هو الاختيار والاصطفاء من الله - تعالى - لهذه الأمة، بمحض فضله، وقبل أن تعمل عملاً ما تستحق عليه هذه النعمة، وقد فعلت بعد ذلك الكثير الطيب من البذل والجهاد.

ويلاحظ في الآيات الكريمة:

١- إسناد الفعل فيها جميعاً إلى الله - تعالى - أعني: (جعل، وأخرج، واجتبى)، وهذا غاية التشريف والتكريم للأمة، وهو أتم شهادة لها من الله الذي ساق الكلام مساق الامتنان بنعمه العظمى، فضلاً عمّا في الآيات من ذكر الوسطية، والخيرية، والاجتباء؛ وكلها ألفاظ مدح.

٢- جعل الله - تعالى - هذا التشريف مدخلاً للتكليف، بالشهادة على الناس في الآية الأولى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الآية الثانية، والجهاد في سبيل الله في الثالثة، وقد قام الصحابة بذلك.

٣- الآيات الثلاث تزكية للأمة المستخلفة جميعاً، ويدخل فيها (الصحابة) دخولاً أولياً لأنهم أوْلى الأجيال والطبقات بهذا الفضل. أو هي خطاب مباشر للصحابة ابتداء، ويدخل في الخطاب الذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين، لاشتراكهم ــ حينئذٍ ــ في العمل والجهاد، والمماثلة في العبودية والانقياد.

ثانياً: اختصاص الصحابة - رضي الله عنهم - بنصوص قرآنية مباشرة، في مناسبات شتى، وبأساليب متنوعة مدحاً، وتزكية، وتفضيلاً، ومن ذلك:

١- قال - تعالى -: {وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} . [الأنفال: ٧٤] والآية الكريمة تسجيل لأنبل أعمالهم من: الإيمان، والهجرة،

والجهاد في سبيل الله، وإيواء المؤمنين ونصرة الرسول ﷺ، ثم هي حكم صريح لهم من الله - تعالى - بصدق إيمانهم، وحقيقته المطلقة. ثم هي وعد رباني جليل لهم بالمغفرة والرزق الكريم، والآية الكريمة نزلت في أوائل العهد المدني بعد غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة.

٢- قال - تعالى -: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: ٨ - ٩]. والآيات الكريمة في سورة الحشر التي نزلت عقب غزوة بني النضير في السنة الثالثة من الهجرة، وهي تزكية عاطرة، وثناء إلهي جليل على المهاجرين والأنصار، وحكم لهم بالصدق، والمحبة، والإيثار، والسخاء في سبيل الله تعالى.

٣- وقال - تعالى -: {لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح: ١٨]. وهذه شهادة ربانية في شأن أهل بيعة الرضوان، حين بايعوا رسول الله ﷺ على الموت في سبيل الله - تعالى - عام الحديبية (في السنة السادسة من الهجرة).

وفي الآية الكريمة لفتة إلهية جليلة بأنْ حكم على بواطنهم بالخير والإيمان، لذلك أنزل السكينة عليهم، ووعدهم بفتح قريب، وقد حدث ذلك يقيناً في (خيبر) بعدها بأشهر معدودة، ثم فتح مكة الذي هدم الله به قواعد الجاهلية كلها (في رمضان من السنة الثامنة للهجرة).

٤- وقال - تعالى -: {وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ} [التوبة: ١٠٠]. وهذه الآية الكريمة من آخر ما نزل من القرآن الكريم بعد غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة، وهي شهادة ربانية للمهاجرين والأنصار بالسبق والفضل، وللذين لحقوا بهم فأسلموا وأحسنوا وإن لم تطل صحبتهم للنبي ﷺ، كالذين حجوا معه ﷺ في السنة العاشرة من الهجرة، وقد عمهم الله - تعالى - بخير الدنيا والآخرة حين صرح برضوانه عليهم، وإعداده الجنات لهم، وهذا أعظم الفوز والفلاح.

ويلاحظ أن الآيات الكريمة تغطّي العهدين المكي والمدني جميعاً، فهي شهادة للمهاجرين الذين صبروا قبل الهجرة صبراً جميلاً طويلاً، وشهادة لهم وللأنصار الذين جاهدوا في الله حق جهاده في حرب مشبوبة موصولة من (بدر إلى تبوك) وما بينهما في جهاد المشركين واليهود.

والآيات في هذا الباب كثيرة جداً، مستفيضة، وهي كلام رب العزة العليم الخبير، وكفى بالله شهيداً، وكفى بحكمه الجليل على ظواهرهم

وبواطنهم، وإثبات رضوانه عليهم في الآيات كلها، ومغفرته لهم، ووعدهم بالأجر العظيم، والثواب الجزيل في جنات النعيم.

شهادة النبي ﷺ للصحابة الكرام:

ومن هنا نعلم سر الأحاديث الكثيرة الواردة في هذا الباب، تطبيقاً لما فهمه ﷺ من القرآن، ومن شهادة الرحمن، ثم بلاغاً لما كان يأتيه من الوحي الإلهي بكرة وعشياً خاصاً بهم، وبياناً لفضلهم، وتحذيراً من سبّهم، ومن ذلك:

١- قوله ﷺ في الحديث المتواتر: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم..»[(١)].

٢- وقوله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي! فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحُدٍ ذهباً ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفَه». رواه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخُدْري مرفوعاً. والمُدُّ: مكيال صغير يبلغ نحو رطل وثلث عند أهل الحجاز، وهو ١/ ٢ صاع، والنصيف: مكيال أقل من ذلك، أو نصف المدّ، وهذا غاية في تقرير فضل الصحابة - رضي الله عنهم - وتقدير منزلتهم، وسبقهم سبقاً عظيماً على غيرهم،

(1) الحديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وقد حكم له بالتواتر عدد من العلماء كابن تيمية في رسالة (الفرقان)، وابن حجر في الإصابة ج١، ص٢١، والسيوطي في كتابه: الأزهار المتناثرة، ص٧٢ حديث رقم ١٠٦، وأورده عن ثلاثة عشر صحابياً (انظر تفصيلاً: كتاب: ملامح النفاق والمنافقين كما بينتها سنة خاتم المرسلين، ص١٤٠ هامش رقم ٣).

حتى ليسبق مدُّ أحدهم إنفاقَ ذهب مثل أحد، وهذا ما لا يملكه أحد، ولا يستطيعه مخلوق فيما نعلم.

ولذلك قال الخطيب البغدادي - رحمه الله -: «والأخبار في هذا تتسع، وكلها مطابقة لما ورد في نص القرآن، وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة، والقطع على تعديلهم ونزاهتهم، فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله - تعالى - لهم، المطلع على بواطنهم، إلى تعديل أحد من الخلق له»[1].

دلالة هذا الموقف الشرعي الحاسم:

تقرر من هذا أن الله - تعالى - في كتابه، وبما أوحاه إلى رسوله ﷺ، قد حسم هذا الأمر حسماً صارماً، حتى صار حكماً شرعياً معلوماً من الدين بالضرورة، يجب الوقوف عنده، ويحرم مخالفته، ويفسق من خالفه، ويكفر من أنكره. وسر ذلك ــ والله أعلم ــ ما يأتي:

١- إحقاق الحق في ذاته، وإعطاء كل ذي حق ما يستحقه، وصيانته عن الباطل الذي يضاد حقه، أو يناقص منزلته.

وهذا مطَّرد في أحكام الشريعة الربانية العادلة، كما قال - تعالى -: {وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ} [يوسف: ٥٦].

وحرم الله - تعالى - كل ما يؤذي من السخرية، والهمز، واللمز، والتنابز بالألقاب، وسماه فسوقاً وظلماً، وحرم سوء الظن والتجسس والغيبة... إلخ.

(1) الكفاية للخطيب البغدادي ص٤٨، نقلاً عن الكتاب السابق.

قال – تعالى –: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١١ – ١٢].

وقال رسول الله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرض». رواه مسلم (برقم ٢٥٦٤)، وأخرجه البخاري بنحوه (٥١٤٤).

وهذه نصوص عامة تشمل أئمة المسلمين، وعامتهم. وأَوْلَى الناس عند التعامل بها هم أصحاب رسول الله ﷺ، الذين يدخلون في الأمر والنهي دخولاً أولياً، فضلاً عن النصوص الواردة فيهم بأعيانهم خاصة. فوجب التزام الحكم الشرعي من جانبي العموم والخصوص، وهذا غاية التأكيد.

ورحم الله الخطيب البغدادي الذي أورد هنا كلاماً غاية في التوفيق والذكاء فقال: «لو لم يرد من الله – تعالى – ورسوله ﷺ شيء مما ذكرناه، لأوجبت الحال التي كانوا عليها – من الهجرة، والجهاد، ونصرة الإسلام، وبذل المهج والأرواح، وقتل الآباء والأبناء، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان اليقين – القطعَ على تعديلهم، والاعتقاد لنزاهتهم، وأنهم أفضل

من جميع المعدَّلين والمزكَّين الذين يجيئون من بعدهم، أبد الآبدين، وهذا مذهب كافة العلماء..»[١].

٢- إنصاف الصحابة لأنهم حملة القرآن والدين، ونقلة الشريعة والأحكام، والطريق المتفرد للأداء والبلاغ عن النبي ﷺ، ومن ثم فهم طريق حفظها واستمرارها، وإلا انقطعت سلسلة البلاغ والاستمرار في أخطر حلقاتها.

ولذلك فتزكيتهم وتعديلهم هو ضرورة لازمة لحفظ الدين كله، وفريضة جازمة لتحقيق الوعد الإلهي بحفظ القرآن والدين، وهو وعد الحق الذي قامت عليه أدلة التواتر التاريخي، والواقع العملي، واليقين البدهي القطعي عن طريق نقل الكافة عن الكافة، وهو أقوى وأثبت من التواتر المحدود بعدد ما في أسانيد الرواة.

وهذا السبب كان هو أقوى الأمور جميعاً لما جاء به الوحي الإلهي من وجوب تعديل الصحابة، وتحريم سبّهم والطعن فيهم تحريماً قاطعاً، وإلا وقع الشك في الدين، وانتقضت العروة الوثقى التي وثقه الله – عزَّ وجلَّ – بها.

وفي ذلك يقول الإمام أبو زرعة الرازي:

«إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا

---

(1) الكفاية، ص٤٩ (نقلاً عن كتاب: ملامح النفاق، المرجع السابق، ص١٤٢).

هذا القرآن والسنن أصحابُ رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة...»[١].

(1) كتاب ملامح النفاق والمنافقين، المرجع السابق، ص١٤٤ نقلاً عن الكفاية للخطيب البغدادي، ص٤٩.

الفصل الثالث: الطاعنون في الصحابة رضي الله عنهم

تبين مما سبق أن أهل الضلالة قد ركزوا مطاعنهم على الصحابة توسلاً بذلك إلى هدم الدين، وإبطال حقائقه وشرائعه، ولا يزال ذلك دأبهم قديماً وحديثاً، على ما نبينه في إيجاز:

أولاً: المنافقون القدامى:

وهم أقوام من الأعراب ومن أهل المدينة قد أبطنوا الكفر، وأظهروا الإسلام خداعاً وكذباً، وقد فضحهم الله - تعالى - في كتابه الكريم، وعلى لسان رسوله الأمين ﷺ، بما أضمروه من العداوة لله ولكتابه، ولرسوله، وللمؤمنين، وبما فعلوه من الفتن، والدسائس، والتخذيل عن الجهاد. وكان موقفهم من المؤمنين والمؤمنات بالغ السوء والعداوة، ومن ذلك:

١- رميهم أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - بالزنى، وإشاعة حديث الإفك بغضاً في النبي ﷺ، وحقداً على الإسلام، وعلى بيت النبوة، وبيت الصـــديق أبا بكر لما يعلمونه من صدق إسلامه. وقد كذّبهم الله - تعالى - في كتابه تكذيباً صريحاً واضحاً فقال - تعالى -: {إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ} [النور: ١١] والذي تولى كبره منهم هو شيخ المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول.

٢- سخريتهم من المؤمنين، وهمزهم ولمزهم، خاصة أهل الصلاح الظاهر من الصحابة، وأهل التقوى منهم، كالأنصار عامة، أو بعض أعيان المؤمنين، كعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعاً، أو كالقراء الذين يحرصون على أخذ القرآن وغير ذلك مما جاء في التفاسير، وكتب السيرة والسنن. ومن ذلك ما رُوي عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال(١):

قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء... فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ونزل القرآن، (يعني بقوله تعالى): {وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ} [التوبة: ٦٥ - ٦٦]. أي أن الله - تعالى - عدّ الطعن في قراء الصحابة - رضي الله عنهم - استهزاء بالله وآياته ورسوله، وحكم على أهله بالكفر.

ثانياً: الخوارج:

وكانت فتنتهم بسبب غلوهم في الدين، وسوء التفسير والتأويل، وتطاولهم على أصحاب رسول الله ﷺ، ولذلك خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ورموه بالكفر هو وجمهور الصحابة

(1) تفسير ابن كثير ج٢، ص٣٦٨ عند تفسير آيات سورة التوبة المذكورة.

- رضي الله عنهم - يقول الإمام ابن الجوزي: «وكانت الخوارج تتعبد، إلا أن اعتقادهم أنهم أعلم من علي بن أبي طالب وهذا مرض صعبب»(١).

وقد دخل عليهم ابن عباس - رضي الله عنهما - ليناقشهم فقال لهم: "أتيتكم من عند المهاجرين والأنصار، ومن عند صهر رسول الله ﷺ، وعليهم نزل القرآن، وهم أعلم بتأويله منكم» ثم عاد لتأكيد هذا المعنى؛ لأنه لبُّ القضية فقال لهم: «هاتوا ما نقمتم على صهر رسول الله ﷺ والمهاجرين والأنصار، وعليهم نزل القرآن وليس فيكم منهم أحد، وهم أعلم بتأويله..»(٢).

ولولا هذا الداء العضال من التطاول على الصحابة، وتأويل الدين بالأهواء، لما وقع هذا الصدع الخطير في بنيان الأمة الإسلامية. لكن مضى الخوارج في طريقهم الوعر، فكفروا المسلمين، واستحلوا الدم الحرام، وغرّهم في دينهم ما كانوا يفترون، مع وجود الصحابة - رضي الله عنهم - الذين نقلوا الدين صحيحاً للناس فأبى الظالمون إلا كفوراً.

ثالثاً: الشيعة:

وهم على عكس السابقين، غلوا في محبة علي - رضي الله عنه - وزعموا له ولآل البيت أموراً ما أنزل الله بها من سلطان، وأول من يبرأ

(1) كتاب (تلبيس إبليس) لابن الجوزي، ص٩١.

(2) تلبيس إبليس، ص٩١، ٩٢.

منها ومنهم هو أمير المؤمنين علي وجميع آل البيت - رضي الله عنهم -. وقد تأدى بهم ذلك إلى سب الصحابة، ولعنهم، وتكفيرهم إلا من ناصر علياً رضي الله عنه.

ولقد بادت فرق الخوارج، وبقيت الشيعة بفرقها المتعددة، تشكل خرقاً خطيراً في أمة الإسلام، إذ يجعلون سب الصحابة، والطعن فيهم ديناً يتقربون به إلى الله - بزعمهم - وينسبون لكبارهم وصغارهم شتى الموبقات والخطايا كذباً وزوراً، إلا نفراً قليلاً منهم، وهذا مما يوقع أنكى الشكوك في الدين كله، إذا كان حملته ونقلته بهذه المثابة عندهم.

ولا يزال موقف الشيعة يشكل أشنع وأبشع تدنيس وتلويث في تاريخ الأمة الإسلامية، وهو الذي يفتح أبواب الفتنة على الناس، والفِرق، والمستشرقين، والمنحرفين من أبناء المسلمين كما سنبين بعد قليل إن شاء الله[١].

والأمل في الله - عزَّ وجلَّ - وحده، ليهدي علماءهم وعقلاءهم إلى ما اختلف فيه من الحق بإذنه، وأن يؤثروا رضا الله على مواريثهم.

---

(1) من شاء فليراجع الكتب الآتية للتثبت من صدق ما كتبناه:

أ- مع الاثني عشرية في الأصول والفروع (موسوعة شاملة)، للدكتور علي السالوس.

ب- أصول وعقائد الشيعة الاثني عشرية، للدكتور حافظ موسى عامر.

ج- عصمة الإمام، دراسة مقارنة (ثلاثة أجزاء - رسالة دكتوراه)، للدكتور حافظ عامر.

د- فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنَّة، للدكتور علي محمد الصلابي.

رابعاً: المستشرقون:

وهم أفواج من علماء الغرب ومفكريه، الذين درسوا علوم الشرق، ولغاته، ومذاهبه، وأديانه، لخدمة كنائسهم، أو دولهم الطامعة في بلادنا، والمعادية لديننا، وقد اصطنعوا لذلك منهجية علمية خادعة، قائمة على الكذب والافتراء، واستطاعوا في فترات ضعف الأمم الإسلامية التأثير في اتجاهات التفكير، والتعليم، حتى فتنوا أجيالاً متتابعة من أبناء المسلمين، وأذابوهم في فتنة الانبهار بالحضارة الأوروبية المعاصرة، بعد أن فرغوهم من حقائق الإسلام، وشحنوا أنفسهم بالمتع والشهوات، وشوهوا لهم النماذج العليا من حضارة الإسلام، وتاريخه، وأصوله. وقد انتهوا بأغرار المسلمين إلى انقلاب خطير، أشبه ما يكون بـ: (الردة الصامتة) كما سماها بعض علماء المسلمين.

وقد ركز هؤلاء الأعداء الألداء على أصول منها:

١- الطعن في القرآن، ونسبته إلى مصادر بشرية، وقطعه عن أصله الأعلى.

٢- الطعن في الرسول ﷺ، وإنكار نبوته، والتشكيك الوقح في سيرته وسنته.

٣- الطعن في أصحابه طعناً منظماً باعتبارهم حملة الدين، ونقلة الشريعة، وقد وجدوا في تراث الخوارج وعقائد الشيعة - قديماً وحديثاً، مستنقعاً هائلاً استمدوا منه مزاعمهم وأضاليلهم!!

وكل ما نجده الآن في الثقافة الأوروبية والأمريكية، أو في موروثات هذه الشعوب، من بغض الإسلام، وعداوة أهله، وتزييف حقائقه وتاريخ،

فالوزر فيه ابتداءً على هؤلاء المستشرقين الكذبة. ونحن لا نستغرب هذا، فليس بعد الكفر ذنب، ولكن الذي يهمنا هنا هو التركيز على تطهير أنفسنا من الداخل، وإيقاف السيل المنهمر من الأضاليل والأكاذيب التي يقولها ويفعلها (**قوم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا**)، أو التي يتهافت عليها أفواج من المثقفين والمبهورين من أبنائنا وبناتنا، كما يتهافت الذباب على المعاطن والقاذورات.

خامساً: المستغربون:

وهم إجمالاً: الذين فتنوا بالغرب وأفكاره، وطرائقه في العيش والحياة، ثم انقلبوا ينظرون لدينهم، وتاريخ أمتهم بقلوب منكوسة، وعقول معكوسة، فصاروا على أمتهم مثل أعدائها أو أشد وأنكى! وهم تفصيلاً: أصناف شتى، مثل:

(أ) تلاميذ المستشرقين:

وهم الثمار المرّة لتربيتهم المباشرة، أو للتشبع بمذاهبهم ومناهجهم الفاسدة، فتسممت أفكارهم وقلوبهم بالشبهات والأضاليل، وصاروا يرددونها كالببغاوات، فكان الفرع شراً من الأصل أحياناً، في الجرأة على الله ورسله وكتبه..!!

(ب) تلاميذ المذاهب الإلحادية المعاصرة:

وهي مذاهب انحلالية فاسدة، أو مذاهب عقائدية كافرة، لا تؤمن بالله ولا بالمرسلين، بل تكفر بكل دين (كالماركسية)، وكالشيوعية التي انبثقت منها، وعمادها: (لا إله والحياة مادة).

وهؤلاء لا يزالون أخبث الفرق، وأشدهم جهالة وعمى، وجموداً على ما تلقنوه، إذ جعلوه ديناً جديداً يعتنقونه، ويسعون لنشره، وهو (دين الإلحاد) فعلاً، وأصحابه مجردون من كل القيم والشرف، لذلك انطلقوا في أوساط (المثقفين) دعاة إلى أبواب جهنم، يستخفون بكل الحقائق، ويستحلون كل محرم جاءت به شريعة الله عز وجل.

ولما كان الإسلام هو الجبل الأشم الراسخ الذي وقف في وجوههم، لذلك خصوه بأوجع نصيب من الطعون والأكاذيب، حتى وصل الأمر ببعضهم[1] إلى تأليف كتاب عن السيرة النبوية الشريفة سماه أولاً: (صناعة نبي) وتبنّى فيه كل ما قاله فلول المنصّرين، أو زعمه قساوسة المستشرقين والحاقدين على النبي الكريم ﷺ، ولـمّا خاف عاقبة جريمته غيّر اسم الكتاب إلى (سيرة الصادق الأمين) سخرية، وحشا تحت هذا العنوان كل ضروب الإفك والأكاذيب، التي أرادها من العنوان الأصلي.

(1) هو شيوعي مصري معاصر كان يتسمى باسم: (الشيخ: خليل عبدالكريم) وقد هلك منذ سنوات معدودة.

وألف كتاباً سماه: (مجتمع يثرب) حشاه بكل ألوان الإفك عن الصحابة رضوان الله عليهم، وصورهم بصورة السكارى، والزناة، والمتآمرين... إلخ، وهم أنبل أمة درجت على الأرض، وأشرف مجتمع عرفه تاريخ البشر. ويلاحظ اختياره اسم (يثرب) بدل (المدينة) وهو اسمها الإسلامي، وبذلك دلّ على صفته من العنوان؛ لأن المنافقين هم الذين كانوا يطلقون عليها هذا الاسم القديم، كما قال - تعالى - {وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟} [الأحزاب: ١٢ - ١٣].

(ج) الزنادقة المعاصرون:

المشهور في معنى الزنديق: أنه الذي لا يتمسك بشريعة، ويقول بدوام الدهر، والعرب تعبر عن هذا بقولهم: (ملحد) أي: طاعن في الأديان. وهذا ينطبق تماماً على أخلاط من المعاصرين، لا ينتسبون لأنماط فكرية أو عقائدية محددة، أو يأخذون من مدارس ومذاهب شتى، أو يندفعون تحت شعارات الحرية، والبحث العلمي المزيف إلى ألوان فاحشة من الأضاليل والأباطيل، ليس لها زمام ولا خطام، كالذين قال الله - تعالى - فيهم: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا} [الأنعام: ١١٢].

وهذا النوع واسع النطاق، يمتد في كل الطبقات، ويشمل جميع أنشطة الحياة كالصحافة والإعلام، ومؤسسات التعليم والقانون، والسياسة والاقتصاد، ناهيك عن محترفي الآداب والفنون!

أمثلة متعددة:

ولنأخذ أمثلة تتعلق بموضوعنا مباشرة (عن الصحابة رضي الله عنهم) وسنشير إلى ذلك بإيجاز شديد:

أولاً: إفك قديم:

في أوائل القرن الخامس عشر الهجري كتب كاتب يساري الاتجاه، شيوعي الهوى، سلسلة مقالات في أوسع الجرائد اليومية انتشاراً بعنوان: (عليّ إمام المتقين). وكان في استطاعته أن يجد فيضاً واسعاً من فضائل أمير المؤمنين ومناقبه، يؤسس بها في نفوس الناس محبة علي وآل البيت، ويبرز من خلالها جلال التربية النبوية لأصحابه جميعاً، ولكن الكاتب جنح بها إلى شر سبيل، وجعلها وسيلة للهجوم على الصحابة جميعاً باستثناء علي رضي الله عنه. وقد ردّ عليه الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - في محاضرة طويلة مشهورة، نشرها في كتابه: (علل وأدوية)[1].

يقول الشيخ - رحمه الله -: «... ومضى الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي في طريقه يفسر الوقائع بمعايير الفكر اليساري، ويقرأ كتب التاريخ غير مميز بين حقيقة وشائعة، وبين صحيح وموضوع، وغير

(1) ص٢٥٢ – ٢٨٠.

مدرك لمكانة الرجال الذين يتحدث عنهم، فجاءت مقالاته بعيدة كل البعد عن المنطق العلمي، كما جاءت بعيدة الأثر في الإساءة إلى الإسلام والصحابة...»[١].

«... وقد عجبت لـمّا رأيت الأستاذ الشرقاوي يقص أخبار الفتنة الكبرى على نحو يحرك الحزازات، ويهيج جمهور أهل السنة! لقد جعل العشرة المبشرين بالجنة مبشرين بالنار، ماعدا علي بن أبي طالب، حتى عمر بن الخطاب كاد يهلك لولا فضل (عليّ) عليه! أما البقية فأغنياء تكويهم ثرواتهم يوم القيامة!...»[٢].

«إن التحصن بعلي بن أبي طالب لضرب بقية الأصحاب خطة قديمة لضرب الإسلام ذاته، وتقويض قواعده الأولى..!»[٣].

ثانياً: إفك جديد:

وعلى هذا النمط، وفي شهر رمضان الماضي ١٤٢٧ هـ طلعت علينا جريدة بعنوان غريب هو: «أسوأ عشر شخصيات في الإسلام»! من عائشة أم المؤمنين إلى عثمان الخليفة الراشد، وحتى الأب الرئيس والابن الوريث[٤].

---

(1) السابق، ص٢٥٤.

(2) السابق، ص٢٦٨.

(3) السابق، ص٢٧٩.

(4) جريدة (الغد) القاهرية، السنة الثانية، العدد: ٨١، الأربعاء ١١ من رمضان ١٤٢٧هـ (٤/ ١٠/ ٢٠٠٦م).

وأصدرت بذلك (ملحقاً) متوسط الحجم، سهل الحمل، غاصاً بالعناوين الغليظة الخطّ، الكثيرة العدد، إمعاناً في لفت الأنظار، وتركيز الأبصار على امتداد ثماني صفحات.. هذا من حيث الشكل!! أما من حيث المضمون فغاية في السوء والتحريض، ومحاولة تأصيل الدنس، وإغراء القارئ العادي بالبحث والتفتيش عن عيوب الصحابة وخطاياهم المزعومة!

يقول الأفّاك كاتب هذا الملحق في صدارة تقديمه:

«أنت قلق، وتشعر بالخوف، وتشعر أيضاً أن الله لن يرضى عنك إذا كوّنت آراء سيئة في صحابة رسوله وتابعيه. لكن اطمئن، صحابة رسول الله وتابعوهم ملأوا كتب السيرة والتاريخ الإسلامي بانتقادات حادة ضد بعضهم البعض، وشتائم قاسية، واتهامات لا يمكن أن تتخيلها.

إذن المشكلة فيك أنت عزيزي القارئ، أنت الذي لا تريد أن تعرف، تريد أن تغمض عينيك ليتساوى الأبيض والأسود، والمخطئ والمصيب»[1].

والكتب التي يشير إليها هي كتب في التاريخ، والأدب، والحكايات المرسلة، تورد كثيراً من الروايات الساقطة، ذات الأسانيد التالفة، أو التي لا سند لها ولا أساس، وهؤلاء الزنادقة يعلمون أننا أمة تتميز (بالإسناد)، وتمحيص الروايات، وعندنا - بحمد الله - من كتب

---

(1) مقدمة (ملحق) العدد السابق بتاريخه.

الصحاح، والسنن الموثقة ما يكفي لإثبات أنبل الصفات وأشرفها للصحابة رضوان الله عليهم، لكن عين الزنادقة لا ترى إلا المساوئ، فإن لم تجد اختلقت الإفك، واخترعت الأضاليل، ثم خرّت عليها كأنها أوثان مقدسة عندهم، وصدق الله:{إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا} [العنكبوت: ١٧].

وهذه قضية تحتاج إلى بسط طويل لا يتسع له المقام في هذه الصفحات المحدودة. ولكن يبقى في ختام هذا الإيجاز (أمران مهمان) تتقرر بهما الحقائق لمن أراد الهدى:

الأول: العدالة لا العصمة:

فالصحابة ــ بصريح القرآن والسنة ــ عدول خيار، بلغوا الغاية في الصدق والأمانة حين نقلوا لنا الدين والأحكام، وكانوا على غاية التطبيق والالتزام، وقد تواتر بينهم قوله ﷺ: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[1].

وقوله – عليه السلام –: «نضّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها...». وقد قال النبي ﷺ ذلك على ملأ من الصحابة في

(1) هذا حديث متواتر رواه الشيخان وغيرهما، وقال ابن الجوزي: رواه عن النبي ﷺ ثمانية وتسعون صحابياً منهم العشرة، ولا يعرف ذلك في غيره. وذكر ابن دحية أنه خرّج من نحو أربعمائة طريق (انظر الحديث رقم: (٢٥٩٣) من كتاب: كشف الخفا ومزيل الإلباس للعجلوني، ج٢، ص٢٧٥).

خطبته في مسجد (الخيف) بمنى عام حجة الوداع، لذلك رواه عنه جمع كبير من الصحابة رضي الله عنهم[١].

أما ادعاء (العصمة) لهم فلم يقل به أهل السنة قط، بل ادعتها الفرق المنحرفة لأئمتها بلا دليل ولا برهان، فيجوز على جميع البشر - غير الرسل - الخطأ والنسيان، والاجتهاد بنوعيه، والوقوع في المخالفات بلا استحلال للباطل.

والصحابة بشر، لكنهم موفقون للحق والورع والصلاح، ولم يثبت عنهم قط أنهم كذبوا في الدين، أو تقولوا في النقل عن الله ورسوله، حتى في زمن الفتن العاصفة التي دخلت على حياتهم رضي الله عنهم.

وقد أحسن أبو سلمة بن عبدالرحمن حين وصفهم بهذا الوصف الجامع فقال: «لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ منحرفين، ولا متماوتين، وكانوا يتناشدون الأشعار في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم، فإذا أريد أحد منهم على شيء من أمر دينه دارت حماليق عينيه كأنه مجنون»[٢]. وفي رواية أخرى: «كان أصحاب محمد ﷺ يتمازحون، ويتبادحون بالبطيخ، فإذا جاء الحق كانوا هم الرجال».

---

(1) رواه أصحاب السنن وغيرهم بطرق كثيرة، وألفاظ مختلفة عن ابن مسعود، وأنس بن مالك، وزيد بن ثابت مرفوعاً. وقد ذكره السيوطي في (الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة) وقال: في أوله في كثير من طرقه: «خطبنا بمسجد الخيف من منى..» وانظر كشف الخفا (السابق) ج٢، ص٣١٩ حديث رقم (٢٨١٣).

(2) تلبيس إبليس لابن الجوزي، ص٢٩١.

الثاني: الآثار الخطيرة المترتبة على سب أصحاب محمد ﷺ.

إن بغض الصحابة من حيث المبدأ هو عقيدة المنافقين ودأبهم، والله - تعالى - يقول: {إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ} [النساء: ١٤٥]، أما سبهم ورميهم بالكفر أو الفسوق، أو المروق من الدين، على نمط ما قامت به بعض الفرق المنحرفة قديماً، وما تفعله الرافضة قديماً وحديثاً، والزنادقة وأمثالهم، متعللين بالظنون والأوهام والأكاذيب، فهذا أمر بالغ الخطر والأثر، ويؤدي إلى أوخم النتائج، ومنها:

(أ) تكذيب الوحي الإلهي:

وقد زكاهم، وعدّلهم، وأثنى عليهم، ووعدهم النصر في الدنيا، والجنات في الآخرة، وقد أنجز لهم وعد الدنيا بعد رسول الله ﷺ، وهو لا يخلف الميعاد في الآخرة يقيناً، فدل هذا على صلاحهم، وسموهم، واستمرارهم على الحق الذي يدخلهم ربهم به الجنة بإذنه. والسبّابون يصفونهم بالكفر، وبالردة، وبالنفاق، وبأنهم خانوا عهد رسول الله بعد وفاته.

فكيف يجتمع النقيضان؟! وكيف يجرؤ عاقل على تكذيب الله ورسوله؟! والجواب البدهي: إن الله يعلم وهم لا يعلمون. وإن الوحي الإلهي صادق وهم كاذبون.

(ب) هدم الدين جملة:

لأنهم حملة الدين، ونقلة الشريعة، ابتداء من ألفاظ القرآن، وسنة الرسول ﷺ، ولا يصح وصفهم بحرف واحد مما تقوّله الضالون الكذابون،

وإلا انهدم كل ما نقلوه لنا من الدين والرسالة. وقد تعهد الله بحفظ دينه وكتابه، ثم الواقع شاهد، وكفى بالله شهيداً، فدل ذلك على براءة أصحاب محمد ﷺ، بل دل على طهارتهم وسموهم، ووفائهم بما عاهدوا الله عليه، والفتنة التي ابتلوا بها كانت بلاء عابراً جسيماً.

(ج) ابتداع دين جديد:

إن إصرار المبطلين على سب الصحابة يؤدي إلى إبطال الإسلام الذي نقلوه لنا، ولابد للناس من دين، فما هو الدين الذي يكون عليه السبابون؟ إنهم حينئذٍ سيقعون في واحدة من بلايا، كلها شر مستطير:

١- أن يتخبطوا في أهوائهم وضلالهم حتى يخرجوا من الدين وهم يحسبون أنهم أئمته، كما قال - تعالى -: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلاً ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [الكهف: ١٠٣ - ١٠٤]. وهذا ما حدث مع (الخوارج) حين صادموا الصحابة، وردوا أقوال المهاجرين والأنصار، فحق فيهم قول النبي ﷺ: «... يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة...» رواه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري، وسهل بن حنيف، وعلي بن أبي طالب، وأبي ذر الغفاري وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم.

٢- ابتداع دين ملفق من بقايا الإسلام ومحدثات العقائد والأحكام، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة(1)، وهذا ما انتهى إليه الرافضة من الشيعة، حين كفَّروا الصحابة، ورفضوا أن يأخذوا عنهم، واخترعوا لأنفسهم مصادر أخرى تقوم على الاختراع والابتداع، كالقول القاطع بتحديد الأئمة في أناس بأعيانهم من آل البيت - رضي الله عنهم - ثم ادعوا لهم العصمة، وقدّموهم حتى على الرسل؛ بل قربوهم في اعتقادهم من (التأليه) مع الله - تعالى -، ثم استمدوا منهم سائر البدع كذباً وزوراً، عدا ما حرفوه من معاني الإسلام. وهذا الأمر أشنع من فعل الخوارج؛ لأنه تأسيس لدين جديد، وتأصيل للضلال باستحلال التشريع من دون الله، وإنكار المعلوم من الدين بالضرورة، واعتقاد ما لم يأذن به الله، والتعبد بما حرم الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وقد أنكر الله - تعالى - ذلك على سائر الفرق، وبرأ منهم رسوله ﷺ قال - تعالى -: {إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ} [الأنعام: ١٥٩] والآية الكريمة تستنكر تفريق الدين أوّلاً، ثم ما يؤدي إليه من تفريق الأمة إلى شيع وأحزاب متضاربة.

٣- إعلان بطلان الإسلام، وفتح باب النبوة من جديد، وقيام فرق تؤمن بأدعياء النبوة المبتدعة، وبكتب أخرى تنسخ الإسلام كما نسخ هو

(1) الحديث: «... وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة» رواه أبو داود والترمذي وهو صحيح.

ما قبله، ومن ذلك (القاديانية) وما تفرع منها، (والبهائية) التي خرجت من مذاهب الشيعة، وأمعنوا في التحريف أكثر من سابقيهم.

خاتمة
تلخيص ومقترحات

خلاصة البحث:

يدور البحث حول إبراز فضائل الصحابة - رضي الله عنهم - وأنهم صدارة الأمة الإسلامية المستخلفة في الأرض إلى يوم الدين، لتبليغ الرسالة الخاتمة، وإقامة حجة الله على العالمين.

ويحذر البحث غاية التحذير من الطعن في أصحاب رسول الله صلى الله عليه سلم باعتبارهم حملة الدين ونقلة الشريعة، أوسبّهم، أو الطعن فيهم يؤدي إلى نتائج خطيرة جداً، منها تكذيب الوحي الإلهي، وهدم الدين الذي لم يصلنا إلا عن طريقهم، وهذا بدوره يفضي إلى ابتداع دين جديد ما أنزل الله به من سلطان.

وقد بين البحث أنواعاً من الطاعنين فيهم قديماً وحديثاً، من غير المسلمين، وممن ينتسبون للإسلام، وهؤلاء أخطر أثراً، وأنكى ضرراً؛ لأنهم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، وهم أولى بالبيان والنصح، ثم المقاومة والزجر إن لم يتوبوا إلى ربهم، والله الهادي إلى سواء السبيل.

مقترحات:

١- دعوة الأمة جميعاً إلى فهم هذه القضية الخطيرة والاهتمام بها لصلتها ببقاء الدين، وامتداد الإسلام.

٢- ترسيخ هذه القضية في وعي الأمة باعتبارها حكماً شرعياً، ونصاً قرآنياً، وسنة متواترة لا تحتمل الخلاف ولا أنصاف الحلول.

٣- دعوة المؤسسات الإسلامية؛ كالجامعات، والجمعيات، والنوادي العلمية، والمساجد، إلى تبنِّي هذه القضية بشتى الوسائل، وبيان الأخطار الماحقة التي تترتب على الطعن في صدر هذه الأمة الذين زكاهم الله عز وجل، وزكاهم رسوله، واستغفر لمسيئهم، وبشرهم بالفضل والتمكين، وجنات النعيم.

٤- ينبغي العناية بالمناهج الدراسية لتأسيس أبنائنا على إجلال الصحابة وتوقيرهم، وتوجيه الرسائل العلمية لخدمة هذا الغرض، وكذلك الكتب العلمية والأدبية، واستخدام المحاضرات، والندوات، وفنون القصة، والمسلسلات الإذاعية بأنواعها، حتى يتأسس وعي عام على هذا الحق الذي قرره القرآن، وجاءت به السنن الصحاح، وشهد به التاريخ الصحيح.

٥- العناية بالرد على المتطاولين بالباطل، ومناقشتهم بالحجة والبرهان، وتجلية الحقائق الصحيحة لهم، في الداخل والخارج، بالحكمة والموعظة الحسنة، فإن الحق والصدق والفضل عندنا بحمد الله، والحق أبلج، والباطل لجلج لا يثبت إلا بتفريط أصحاب الحق.

٦- العناية الجادة بتنقية الكتب القديمة مما حشد فيها من روايات تالفة، وأخبار كاذبة، وتوجيه طلاب الدراسات العليا لخدمة هذه الكتب، وتحقيقها بالرسائل الجامعية الوثيقة.

٧- تنظيم مسابقات علمية وأدبية جادة، وذات جوائز قيمة للتأليف في تصحيح تاريخنا القديم وبيان الحقائق التي زيّفها أهل الباطل، وهذا مجال الجمعيات الخيرية الكبرى، وأصحاب البذل والعطاء ممن يريدون للصحابة الإنصاف والإجلال، وللأمة الإسلامية التآلف والاتحاد. والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فهرس أهم المراجع

١-القرآن الكريم.

٢-تفسير ابن كثير.

٣-كتب السنة المتعددة (كالصحيحين والسنن).

٤-كشف الخفا ومزيل الإلباس، للشيخ إسماعيل العجلوني، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥-ملامح النفاق والمنافقين كما بينتها سنة خاتم المرسلين، للدكتور محمد أنور البيومي، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ، مؤسسة العلياء، القاهرة.

٦-تلبيس إبليس للإمام ابن الجوزي، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، ١٣٦٨هـ.

٧-مع الاثني عشرية في الأصول والفروع (موسوعة شاملة)، للدكتور علي السالوس، الطبعة الرابعة ١٤٢٣هـ، دار الفضيلة، الرياض.

٨-أصول وعقائد الشيعة الاثني عشرية، للدكتور حافظ موسى عامر.

٩-عصمة الإمام في الفقه الشيعي (دراسة مقارنة) ثلاثة أجزاء للدكتور حافظ موسى عامر. كلاهما طبعة مكتبة الإمام البخاري للنشر، مصر، الإسماعيلية، ١٤٢٧ هـ.

١٠-فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة، للدكتور محمد علي الصلابي، الطبعة الأولى، القاهرة، مؤسسة اقرأ، ١٤٢٦ هـ.

١١-علل وأدوية للشيخ محمد الغزالي، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٤١١ هـ.